منهج السلف أسلم وأعلم وأحكم

[محاضرة مفرغة]

لفضيلة الشيخ الدكتور

صَالِحِ بْنِ سَعْدٍ السُّحَيْمِيّ

- حفظه الله تعالى -

الأستاذ المشارك ورئيس قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية – سابقا –

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

فرَّغها

عبد الغني بن أحمد الدليمي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

إنَّ الحمْدَ لله نحمدُه ونَستعينُهُ ، ونَعوذ بالله من شُرور أنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أعمالنا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله .

أما بعد :

إخوتي وأحبتي في الله ، لقد اخترتُ هذا العنوان الذي سمعتموه ليكون مدخل هذه المحاضرة ، وهو :

" منهج السلف أسلم وأعلم وأحكم "

لِبيان أن طريق النجاة ، وطريق السلامة ، وطريق الهدى والرشاد ، هو التَّمسكُ والاعتصام بحبل الله المتين وصراطه المستقيم ، الاعتصامُ بحبل الله وبالمنهج السوي ؛ الذي جاء به رسول الله ﷺ من عند الله ؛ حيث تَرَكَنَا على البيضاء ؛ ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك .

وهذه العبارة العظيمة " **مَنْهَجُ السَّلَفِ أَسْلَمُ وَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ** " ، ذَكَرَهَا شيخُ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ - رحمه الله تعالى - في معرض رَدِّهِ على أهل الكلام والمَنْطِقِ ، الزاعمين بأن طريقةَ السلف أسلمُ وطريقةَ الخلف

أعلـمُ وأحكـمُ . ورَدَّ عـلى مـا بَنَـوْا عليـه هـذه القاعـدةَ الفاسـدةَ ؛ والتـي تتلخص في أمرين :

الأمر الأول: جَهْلُهُمْ بطريقة السلفِ ، **والأمـر الثـاني:** خَطَأُهُم وضـلَالهُم بتصويب طريقة الخَلَف .

لقـد زعمـوا في هـاتين المُقـدّمتَيْن أن الـسلفَ كـانوا لا يَعْلَمُـونَ إلا ظَوَاهِرَ النصوص التي ليست لها معانٍ ، فَهُمْ يفهمون على أنها ألفاظٌ جوفاءُ ، خصوصا في باب الأسماء والصفات . ثم رتَّبوا على ذلك أن الحقَّ هو تلك التأويلاتُ الفاسدةُ التي تَوَصَّل إليها الخَلَفُ ، وَهُمُ المشتغلون بِعِلم الفلسفةِ والمنطقِ وعلمِ الكلامِ ، الذي ضلَّتْ بِهِ الأمة ؛ أو ظل به كثيرٌ من الناس عن منهج الله الحق .

وما أَشْبَهَ الليلةَ بالبارحةِ !

فإننا نسمع مقولاتٍ من هنا وهناك ، شبيهةً بمقولات أهل الكلام والمنطق ، القائلين بأن طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم ، وهي قَوْل كثيرٍ من زعماء الفكر في هذا العصر : إِنَّ العلماءَ - يَعْنُونَ بذلك علماءَ الأمة - عَلَى خَير وعلى - يعني - أمر طيب ؛ غَيْرَ أنهم لا يُدرِكون ما يُحيط بالأمة من أخطار ، ولا يَعُونَ ذلك ، وأن أصحاب

الفكر وأصحابَ الثقافة الضعيفةِ والكُتب العصرية ، هُمُ الَّـذين يُـدرِكون أو يَملكون الحلولَ لِمشاكل الأمة وإزالة الأخطار التي تحيط بها مـن كـل مكان !.

لذا نسمع أوصافًا لا تليق يُوجِّهونها إلى علماء الأمة : من أنه يُرجع إليهم في فتاوى تتعلق بالطلاق، وأحكام الزواج، والوقف والميراث ، وما إلى ذلك .. وأمّا بقية الأمور تتعلق بمصير الأمة ومستقبلها وعلاجِ مشاكلها ، وما يَجِدُّ لها من أمور ؛ فإنَّ هذه تُتْرَك لأهل الفكر وزعماء الفكر ، الّذين يَدَّعون أنهم أَتَوْا بما لم تأتِ به الأوائل ! وأن بِيَدِهم الحلولَ لمشاكل هذه الأمة .

تتمثل تلك الحلول بإشغال الناس عامةً والشبابِ خاصةً بأخبار العالَمَ وما يَعُجّ به من مشاكل من هنا وهناك ، وتَتَبُّعِ تلك الأخبار والانشغال بقُصاصات الصحف والمجلات وما إلى ذلك ، مِمَّا يُسَمُّونَهُ بِفِقْهِ الواقع ، ومن ثم الانشغال بالخُطب الرّنّانة والكلام الكثير ، الذي في كثير من الأحيان ليس فيه شيء من الحلول ، وإنما هو عبارة عن إشغال الناس بتلك القضايا وما فيها ؛ مما لا يَزيدُ السامِعَ إلا حيرةً وَأَلَمًا وبُعْدًا

عن المنهج الحق ، الأمر الذي جعلهم لا يهتمّون بمنهج السلف الذي هو أسلم وأعلم وأحكم .

لِذا فإنه لابد من فهم كلمة المنهج أَوَّلًا وفَهْمِ كلمة السلف، ثم بيانِ هذا المنهج ، وبيان أنه المنهجُ الحق ، وبيانِ مقوماته وما يضاده .

فالمنهج خُلاصة مدلوله أنه الطريق والإطار العامّ الذي يسار عليه ، والذي يشمل رَسْمَ الخطوط العريضة والقواعد العامة ، والأسس التي ينبغي أن يَسير عليها المرءُ . وقد ذكر الله تبارك وتعالى لفظةَ المنهج والمنهاج في القرآن الكريم فقال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة : ٤٨] . أَيْ أَنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لكل أمةٍ شريعةً وأُسُسًا تَسيرُ عليه في عبادتها وفي أحكامها وآدابها وأخلاقها ؛ وإن كان الأساس العامّ لكل ما جاء به النبي هو توحيد الله سبحانه وتعالى .

فالمنهجُ هُوَ القَوَاعِدُ الأَسَاسِيَّةُ وَالأُصُولُ الثَّابِتَةُ الّتِي يَجِبُ أَنْ تَسِيرَ عَلَيْهَا الْأُمَّةُ ، حتى تُحقِّقَ ما تصبو إليه من مجْدٍ ورفعةٍ وسؤددٍ .

وأما السلف فَهُمُ الذين تَقَدَّموا من علماء الأمة ، الذين ساروا على المنهج القويم ، الذي بُنِيَ على كتاب الله تبارك وتعالى ، وسنة رسول الله ﷺ ، بِلا إفراط ولا تفريط .

وهل كلمة السلفية قاصرةٌ على أصحاب القرون الثلاثة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « **خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم** »[1] ؟ أمْ أنَّ ذلك يَعُمُّ كلَّ من تقدم من علماء الأمة وأهل الحلّ والعقد فيها ، والذين دعوا إلى السير على المنهج الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابُه ؟

أظن أنَّ الأمر فيه سَعَة ، وأنَّ من قَصَرَ إطلاق كلمة السلف على أصحاب القرون المفضلة ، لا يعارِضون إطلاق كلمة السلف على من جاء بعدهم من العلماء الربانين الذين يجددون لهذه الأمة كل ما اندثر من أمر دينها في كل قرن.

ولذلك فإن السلفَ هُمْ كلُّ مَنْ تَقَدَّم على هذا المَنْهج مِن أهل الهدى والرشادِ والعُلماءِ الربانِيِّينَ . وَمَنْ سَارَ عَلَى نهجهم هُمُ السَّلَفِيُّونَ ، هُمْ أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ ، هُمُ الطائفةُ الناجيةُ المَنصورةُ ، هُمْ أهلُ الحقّ ، هُم

[1] رواه البخاري ومسلم .

أهلُ الإيمانِ وأهلُ التقوى وأهلُ الاستقامةِ وأَتْبَاعُ السلف ، والسلفيون والسُّنِّيُّونَ وهُم الجماعة ، ونحوُ ذلك من الأوصاف التي تدل على معنى واحد في حقيقةِ الأمر مَهْمَا اختلفتِ الألفاظ .

ولا يضيرنا من يَتَبَرَّمُ من إطلاق كلمة السلفية ؛ لأنه فَهِمَ أن السلفية حِزبٌ من الأحزاب القائمة ، أو طائفة من الطوائف المتصارعة ، لأن هذا فَهْمٌ مبنيٌّ على خطإٍ في المنهج ، وإنما السلفيُّ ومن يتبع السلف كلُّ من سار على هذا المنهج في أي بقعة من بقاع الأرض . وكما قلت هم أهل الحل والعقد وهم الطائفة المنصورة ، وهم أهل الحق ، وهم الطائفة الناجية ، وهُم أهل السنة ، وهم الجماعة ، وهم المسلمون ، وهم الذين ينهجون نهج سبيل المؤمنين الذي قال فيه الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [النساء: ١١٥]. وهم السائرون على هذا المنهج الذي قال الله في أهله ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

وقد وصف الله – تعالى – السلفَ وأتباعَهم ومن سار على نهجهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها في ثلاث آيات في سورة الحشر . قال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ٨ – ١٠] .

فالآية الأولى تعني المهاجرين . والآية الثانية تعني الأنصارَ ، ومعهم الصحابة الذين عاصروا النبي ﷺ وشافَهُوه وسمعوا الوحي منه طريا كما أُنزل . والآية الثالثة تعني من تَبعَهم بإحسان ومن يسيرون على هذا المنهج إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذا هو الصراط المستقيم ، وهذا هو الطريق القويم ، وهذه هي الجماعة التي أَمَرَ الله – تبارك وتعالى – بلُزُومِها ، فقال تعالى :﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾[آل عمران: ١٠٣ 51 «-| [۴ «-pA ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] . وقال فيه رسول الله ﷺ : « أن يَدَ الله عَلَى الجَماعة »[2] . وقال بعد أَنْ ذَكَرَ افتراقَ الأمة إلى ثلاثٍ وسبعين فرقة ، كلُّها في النار إلا واحدة قال : « هِيَ الجماعة »[3] ، وفي رواية : « هِيَ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ اليَوْمَ وَأَصْحَابي »[4] . الرواية الأولى « هي الجماعة » أَصَحّ .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعَضُّوا عليها بالنواجذِ »[5] .

فلقد تُوُفِّيَ الرسول – عليه الصلاة والسلام – بعد أن أوضَح السبيل ، وأقام الدليل ، وأنار السبيل ، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ، وترك فينا كتابَ ربنا وسُنَّتَهُ عليه الصلاة والسلام .

فهذا هو حبل الله المتين ، وهذا هو الصراط المستقيم ، صراطُ ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ

---

[2] رواه النسائي ، وصححه الألباني بشواهده .

[3] رواه أبو داود والدارمي وأحمد .

[4] رواه الترمذي بلفظ : « قال ما أنا عليه وأصحابي » وحسنه الألباني .

[5] رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ، وصححه الألباني .

رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ [النساء: ٦٩] . الصراطُ الذي من تمسَّكَ به نجا ، ومن سار على هديِهِ اهتدى ، وَمَنْ طبَّقَهُ قولا وعملا واعتقاداً سعد في الدارين . ومن طَلَبَ الهُدَى من غيره أضَلَّه الله ، ومن ابتغى سبيلَ الخير من غيره أبعده الله . فهو حبْلُ الله المتين ، وصراطُه المستقيم ، وطريقُ السالكين ابتغاءَ مرضاةِ رب العالمين .

فيجب علينا أن نَعَضَّ عليه بالنواجذ كما أمرنا رسول الله ﷺ بقوله : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاءِ الراشدينَ المهديِّين من بعدي ، تَمَسَّكُوا بها ، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بالنَّوَاجذِ »[6] . يقول أبو ذَرٍّ – رضي الله عنه – : (**لقد توفي رسول الله ﷺ وما مِنْ طائرٍ يَطِيرُ بـجَناحَيْهِ إلا وَقَدْ تَرَكَ لَنَا فِيهِ عِلْمًا**) – أَوْ كما قال رَضِي الله عنه – كَمَا رَوَاهُ الإمام البُخَارِيّ وغيرُه في صحيحه .

فإذا عَلِمْنَا سلامةَ هذَا المنهج ، وأَنه أسْلَمُ وأعلَمُ وأحْكَمُ – لأَنَّه من عند الله ؛ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢] –، إذَا عَلِمْنا ذلك ؛ فإنه ينبغي لنا أَنْ ندعُوَ بدُعاء النبي ﷺ مِنْ أجل أن يُثبِّتَنَا الله – عزّ وجل – على هذا المنهج في قوله : « اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطرَ السموات والأرض ، عالِمَ الغيب والشهادة ،

---

6 تقدم .

أنت تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اِهْدِنَا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »[7] . ودعائِه – عليه الصلاة والسلام – في سُجوده :« يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ »[8] .

فنسألُه – تَبَارَكَ وَتَعَالَى – أن يُثبِّتنا بالقول الثابت على ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وإذا تبين هذا ؛ فإننا نشرع في الأُسُس التي ينبني عليها هذا المنهج وهو منهجُ السلف الذي قُلْنَا – وقال سلَفُنا الصالح قبلَنا – إنه أسلم وأعلم وأحكم . وسنذكر بعضَ هذه الأسُس على سبيل المثال لا على سبيل الحصر :

الأساس الأول الذي يقوم عليه هذا المنهج ، وكما تعلمون أنَّ أيَّ بناءٍ لا يقوم على أساس متينٍ ، فإنَّ مصيرَه إلى الانهيار قال الله – عز وجل – : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ ﴾ [التوبة: ١٠٩] الآية .

---

7 رواه مسلم .

8 رواه الترمذي ، وصححه الألباني .

وَالبَيْتُ لاَ يُبْتَنَى إِلاّ لَهُ عُمُدٌ وَلا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فَالأَسَاسُ الأَوَّلُ هُوَ الْعِلْمُ وَالتَّعَلُّمُ وَالتَّفَقُّهُ فِي دِينِ الله . لِذا نَرى الإمامَ البخاريَّ - رحمه الله تعالى - يَعْقِدُ باباً في هذا المعنى بعُنْوان (**العلم قبل القول والعمل**) ، ثم يُصَدِّرُه بقول الله - عَزَّ وَجَلّ - : ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [محمد: ١٩] .

فأساسُ هذا المنهجِ هو العِلم والتعلُّم والتَّفَقُّه في دين الله ، قال الله - تعالى - : ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩ ﴾ [الزمر: ٩] ، وقال الله - تعالى -: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة: ١١]، وقال - تعالى - مُبيِّنًا منزلةَ أهل العلم وأنهم أَشَدُّ الناسِ خشيةً لله : ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقال - تعالى - : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقال - تعالى - : ﴿ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ۝١٢٢ ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال رسولُ الله ﷺ : « مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[9] .

فالفِقهُ في الدين هو أساس كل خيرٍ ، وهو أساس صلاح العمل . ومن بقي بلا علم ؛ فإنه عرضة في دَيَاجير الظُّلَمِ ، يَفعلُ القبيحَ يَظُنُّهُ حسنًا ، ويترك الحَسَنَ يظنه قبيحًا :

يُقْضَى عَلَى الْمَرْءِ فِي أَيَّامِ مِحْنَتِهِ   حَتَّى يَرَى حَسَنًا مَا لَيْسَ بِالْحَسَنِ

وقد كان السلفُ الصالحُ لا يُقْدِمون على عَمَلٍ حتى يَعْرِفُوا أَنَّ هذا العملَ مشروعٌ ، بأَنْ يَدُلَّ عليه دليلٌ من الكتاب أو السنة . ولذلك يقول النبي ﷺ : « إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بالتَّحَلُّمِ »[10] . والعلم لا يأتيك وأنت قابعٌ في بيتك ؛ وإنما يأتي بالسَّيرِ الحثيث في طَلَبه ، وبَذْلِ الغالي والنفيس في ذلك ؛ حتى يتحققَ لَكَ طلبُ العلم النافع والعملُ الصالِحُ . فهذا هو الأساس الأول؛ العلم : أعني العلمَ الشرعيَّ المستمَدَّ من كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله ﷺ .

ثانيا : أن يكون مصدرُ هذا العلمِ المَنْهَلانِ العظيمانِ : كتابُ الله – تعالى – وسُنَّةُ رسول الله – عليه الصلاة والسلام – ، هما المرجعان عند

---

[9] رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما .

[10] حسَّن إسنادَه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة .

الاختلاف ، والمُلجأُ عند التَّرَدُّدِ ، والموئلُ عند ظهورِ الفِتَنِ ، قال الله - تعالى - : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩ ﴾ [النساء: ٥٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [الشورى: ١٠] ، وقال - تعالى - : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ ﴾ [الحشر: ٧] ، فالعِلم - الذي هو إِدْرَاكُ المعلوم على حقيقتِهِ التي هو عليها - لا يتحقق إلا إذا أُخِذ من هَذَيْن المصدرَيْن : الكتاب والسنة .

ثالِثًا : أَنْ يَكُونَ هَذَا التَّعَلُّمُ عَلَى مَنْهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وذلك بأنْ يؤخَذَ العلمُ وِفْقَ مفاهيمِ السلفِ الذين خدموا هذا الدِّين ، وقدَّموا لنا هذه الكنوزَ العظيمة : من قواعِدَ وَمُتُونٍ وشروحٍ وحواشٍ ، بذلوا فيها أوقاتهم الثمينة ، وقدموها لنا طَرِيَّةً عظيمةً .

فينبغي أن نَسِيرَ على نَهْجِهِم ، وأن لا ندعِيَ لأنفسنا الاستقلالَ عن مفاهيمهم ؛ لأنهُم هُمُ الَّذين نقلوا إلينا هذا الوحي ، وَهُمُ الَّذين استنبطوا منه الأحكام ، وهُم الذين أفنَوا أعمارهم في خدمته ، وهم الذين قدموه إلينا جاهزا ؛ فما علينا إلا أن نَنْهَلَ مِنه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ

ﭐﻗۡﺘَﺪِهۡۗ ﴾[الأنعام: ٩٠] . وَيُخْطِئُ من يَظُنُّ أَنَّه يستطيع أن يفهم الدِّين فَهْمًا صحيحاً إذَا لم يرجعْ إلى قواعد السلف ومنهجهم في العلم والعمل . لأنه مَنْ فَعَلَ ذلك ؛ فَقَدِ اتَّبعَ غَيْرَ سبيلِ المؤمنين ، وحَادَ عن الطريق السويّ ، واتبع السبيل التي حذرنا الله – تبارك وتعالى – مِنِ اتِّباعها . فلابد مِنْ أَخْذِ هذا الأمر على مفاهيم السلف الصالح .

وهذا ينقلنا إلى **الأساس الرابع : وَهُوَ التَّلَقِّي وَالتَّعَلُّمُ عَلَى أَيْدِي العُلَمَاءِ الرَّبَّانِيِّينَ المُتَخَصِّصِينَ الَّذِينَ سَارُوا عَلَى المَنْهَجِ الْقَوِيمِ** والذين قال فيهم رسول الله ﷺ : « يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ »[11] . لأن هذه الأمورَ الثلاثَةَ هِيَ مداخلُ الشيطان ؛ مَدَاخِلُ الشيطان إما عن طريق الغُلُوِّ وإمَّا عَنْ طريق الْجَهْلِ وإما عن طريق الْهَوَى.

فقوله ﷺ : « يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ » : بيانٌ لخطورة الغلو على الدين .

وقوله : « انْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ » : بيانٌ لِخُطُورَة الهوَى : (الدين ليس لهم إلا ما أُشربوا من أهوائهم) .

---

[11] رواه البيهقي ، وصححه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح .

وقوله : « تَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ » : يَدُلّ على خطورة الجهل ، وأنه قد يصل بصاحبه إلى مَهَاوِي الرَّدَى ، ويُضِلُّه عن طريق الهُدى . ولذلك تَقَدَّمَ لنا ذِكْرُ الحديث الذي يقول فيه ﷺ : « إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم » .

وَمَنْ زعم أنه يستطيع أن يفهم الكتاب والسنة بدون التلقي عن العلماء والدراسةِ عليهِم ؛ فإنه على خَطَرٍ عظيم .

ومِمَّا يَنْدَى له الجبين ، ومما يُؤسَفُ له ، أننا نرى بعضَ أُناسٍ قَرَأُوا لهم ، وقرأوا بعض الكتب ، وقرأوا بعضَ الأحاديث ؛ دون أن يتتلمذوا على العلماء ، فنَصبُوا أنفسهم للفتوى ، وزعموا أنهم ليسوا بحاجةٍ إلى التَّلَقِّي على هؤلاء العلماء ، **وَمَنْ كَانَ عِلْمُهُ مِنْ كِتَابِهِ فَخَطَؤُهُ أَكْثَرُ مِنْ صَوَابِهِ** . ولذلك عندهم جُرْأة خطيرة على الفتوى وعلى مخالفة أهل العلم ، وجُرأة على دين الله ، حيث يُفتون بغير عِلْمٍ فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّون .

وهؤلاء قد وصفهم النبي ﷺ خصوصًا عند قِلّة العلماء ، أو عند بُعْدِ الناس عن العلماء عندما قال : « إِنَّ الله لا يَنْتَزِعُ العِلمَ انتزاعًا وإنما يقبضُه بقَبْضِ العلماء ، فإذا لم يبق عَالِمٍ اتخذَ الناس رؤوسا جُهَّالا فسُئِلوا فأَفْتَوْا

بغير علمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا »[12] . وهذا ما نشاهده في كثير من المجتمعات ، حيث ساد الجهال وأدعياء العلم وتَجَرَّأُوا على التَّحَكُّم في مصير الأمة والفتوى بغير علم ، حتى في تلك القضايا المَصِيرية التي لا يمكنُ أن يفقهوها ، وإنما يَفْقَهُهَا أهلُ العلم : العلماءُ الربانيون الذين يقولون بالحق وبه يعدلون .

أَخِي لَنْ تَنَالَ الْعِلْمَ إِلاّ بِسِتَّةٍ سَأُنْبِيكَ عَنْ تَفْصِيلِهَا بِبَيَانِ
ذَكَاءٌ وَحِرْصٌ وَاصْطِبَارٌ وَبُلْغَةٌ وَصُحْبَةُ أُسْتَاذٍ وَطُولُ زَمَانِ

العلم لا يأتي إلا بالتلقي .

سُئِلَ أَحَدُهُم – أعني الذين تَصَدَّروا العلم وليسوا من أهله – : هل تَتَلْمذْتَ على الشيخ فلان والشيخ فلان وعَدَّدْنا بعض مشايخنا الكبار وَأَوَّلُهُم شيخُنا الإمام العلامة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ؛ قيل هل تَلَقَّيْتَ هذا العلم – عندما يعني كَثُرتْ بعض كتبه وأخطائه التي يعني ينشرها هنا وهناك – سُئِل : هل تتلمذت على الشيخ عبد العزيز ؟ قال : لا .

هل تتلمذْتَ على الشيخ محمد بن صالح العُثَيمين ؟ قال : لا .

---

[12] رواه ابن حبان ، وصححه الألباني في التعليقات الحسان .

هل تتلمذت على فلان وفلان ؟ (وعُدِّدَ له بعضُ المشايخ) فأجاب بلا .

وقيل له لماذا ؟ فقال : لا أريد أن أُضيع وقتي ! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ [المدثر: ٣٥] .

ما أَجْرَأَهُمْ ! إنهم سفهاءُ الأحلام صِغار العقولِ ، نَفَخَ فيهم الشيطان أنهم علماءُ ، فتركوا العلماءَ وتصدَّروا ، وصار كل واحد منهم يُفتي نفسه ويفتي أتباعه . وهذا دَاءٌ قد دَبَّ في العالم الإسلامي منذ ما يربو على سِتِّينَ أو سبعينَ سنةً . وأخذ لَظَاه ولَهَبُه يصل إلينا عندما ضعفت صلة الشباب بعلماء الأمة ، وعندما اهتم بعضهم بتقديس البعض ، وعندما جعلوا الصحفَ والمجلاتِ والدورياتِ هي مصادر العلم عند الكثير منهم .

قال الله – تعالى – : ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] .

فلماذا لا نرد الحق إلى نصابه ؟

ولماذا لا نَلْتَفُّ حول علمائنا ونقتدي بهم ونأخذُ عنهم ونقتبس منهم وهم بقية السلف ؟

إنَّ هذا – أعني أخْذَ العلم عن مصادره الصحيحة عن العلماء الربانيين – هو طريقُ السلامة والنجاة ، وطريقُ الوصول إلى مرضاة الله ، وطريق فَهْمِ الكتاب والسنة .

الأساس الخامس من هذه الأُسُسِ من أُسُسِ منهج السّلَف الذي هو أَسْلَمُ وأَعْلَمُ وأحكم : التَّوَاضُعُ . وأعني تواضعَ لِينِ الجانب للعلم والتعلُّم وللعلماءِ ، فإنه من تواضع لله رَفَعَه . وإنَّ الشيطان لَيَنْفُخُ في رأس البعض أنه قد بلغ درجةً لم يَبلغها أحد ، فإذا وَصَل إلى هذه الحال ؛ فَلْيَعْلَمْ أنه أَجْهَلُ الناس . فلا يزال الرجل عالما مادام يطلب العلم ، فإذا ظنَّ أنه قد علِم فقد جهِل .

والأساس السادس: أَن لا نَعْتَقِدَ العِصْمَةَ لأَحَدٍ بَعْدَ رسول الله ﷺ وهذا بعد تعظيمِنا واحترامِنا لعلمائنا وتوقيرهم وإعطائِهم حقوقَهُم وتنزيلِهم منازلَهُم وَأَخْذِ الحق عنهم والتلقي عنهم ، ومع ذلك لا نعتقد العصمةَ لأحد بعد رسول الله – عليه الصلاة والسلام – إذِ العصمة للرسل – عليهم الصلاة والسلام – ، والكمال لله والعصمة لِرُسل الله ، وأما من دونهم فإنهم عرضةٌ للخطأ والصواب . ومع ذلك نعتقد أن

العلماء الربانيين إذا اجتهدوا فأصابوا فلهم أجران ، وإذا اجتهدوا فأخطأوا فلهم أَجْرٌ واحِد كما هو هديُ رسول الله ﷺ .

سابعا: اِلْتِمَاسُ العُذْرِ لِمَنْ أَخْطَأَ مِنْ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ كما هو منهج سلفنا الصالح ، بعد أن نعتقد أن العصمة ليست لأحد فإننا يجب أن نعلم أنهم - رحِمهم الله ورحِمَ الله مَيِّتَهم وأجزَلَ المثوبة لِحَيِّهم ورحم الله الجميع - أقول بعد أنْ ننزلهم منازلهم ، فإننا نلتمس لهم العُذر في المسائل التي حصل فيها خطأ اجتهادي . وهذا يتطلب من طالب العلم أن يعرف قواعدَ السلف في هذا الباب ، ولا بُدَّ له مِنْ قراءة كتابٍ عظيم لشيخ الإسلام ابن تيمّية - رحمه الله تعالى - وهو كتابُ (**رَفْع المُلامِ عَنِ الأَئِمَّةِ الأَعْلامِ**) . فإنه بَيَّنَ أعذارَ العلماء في بعض المسائل التي أخطأوا فيها ، وذلك يرجع إلى أسباب ثلاثٍ :

-**إما** أن الحديث لم يَبْلُغْهم ، وهذا لا يَعِيبُهُم ، فَقَدْ خَفِيَتْ بعض الأحاديث على كبار الصحابة .

-**وإما** أن يبلُغَهُم ولكنهم لم يَرَوْا أَنه بلغ درجةَ الصحة الثابتة إلى رسول الله ﷺ .

-**وإما** أنه بلغهم ولكن فِهمُوه فَهْمًا آخَرَ إِما أنه منسوخ ، أو أنه مُخَصَّصٌ أو مُقَيَّد أو نحوُ ذلك مِنَ الأعذار . فراجعوا هذا الأمر مُفَصَّلا في كتاب رفع الملام عن أئمة الأعلام .

الأساس الثامن: أَخْذُ الإِسْلامِ كُلِّهِ وَالاهْتِمَامُ بِأُمُورِ الدِّينِ كُلِّهَا بلا اسْتِثْنَاءٍ . فإنَّ المنهجَ الحقَّ هو أن المؤمن لا يتساهل في شيء من أمور دينه ، فمتى بلغه الأمرُ في كتاب الله ،أو في سنة رسول الله ﷺ ؛ لا يَسَعُهُ إلا أن يقول سمعنا وأطعنا : ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾[النور: ٥١] ، وقال – تعالى – : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[الأحزاب: ٣٦] . وقال – تعالى – ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤] .

فلا نأخذُ جانبا على حسابِ تضييعِ جانبٍ آخَرَ فإننا نعاني من طرائقَ معاصرةٍ تَهْتَمُّ بجوانِبَ من الدِّينِ ، يظُنون أنهم بمنظورهم الضيق أنه يكفي للتطبيق ، ويُضيعون ما سواه :

كالَّذِينَ يُدندنون حول السياسة والسياسيين والأخبار والإخباريين ويُضيعون أوقاتهم في هذا السبيل .

وطائفةٌ أخرى تهتم بجانبٍ ما يتصورون أنه الزهدُ والعبادةُ ، بينما هو تَصَوُّفٌ مَحْضٌ دَخِيلٌ علينا وعلى بلادنا ، يتمثل ذلك في الخروج والسِّياحة في الأرض ، وهذا هو كل شيء عندهم !.

وطائفةٌ أخرى تتنازل عن بعض مبادئ الإسلام من أجل إرضاء اليهود والنصارى ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢] .

وطائفةٌ أخرى عندهم الغايةُ تُبَرِّرُ الوسيلة ، فإذا كانت الغايةُ صحيحةً فلا يَهُمُّهُم أن يرتقوا إليها بأَيَّةِ وسيلةٍ ولو كانت مُحَرَّمَةً : فيسلكون في سبيل الدعوة - مثلا - مسالِكَ مستوردةً كاستخدام المسرحيات والتمثيليات والأناشيد ، واستخدامِ بعض الطُّرُق التجميعية التي يَهُمُّها أن تَجْمَعَ من هَبَّ ودَبَّ مَهْمَا كانت عقائدُ أولئك المجتمِعين ، تحت ستارِ : (نَجْتَمع فيما نجتمع عليه ، ويَعذُر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه) .

وطائفةٌ أخرى تَتَنَكَّرُ لِلدِّينِ كُلِّه ، لأنها قدِ استغربَتْ وَتَفَرْنَجَتْ وَانْحَلَّتْ وَبَعُدَتْ عَنِ الدين ، ورأَتْ أنه لا يَصلُح ، وأنه رجْعِيّة وتَأَخُّر .

وَكُلُّ هذه الطوائف يجب أن نبتعدَ عنها ، وأن نَبْرَأَ منها ، وأن نسير على منهج الحق : بأَخْذِ الدّين كله من مصادره في العقيدة، في العبادة، في

الأحكام ،في الأخلاق، في الآداب، في الحدود، في كافة نواحي الحياة .

مع مراعاة مُقتضَيات الأحوال ، وملاحظةِ أنَّ لِكلِّ مقامٍ ما يناسبه ، خصوصا من يهتمون بأمر الدعوة والدعاة ؛ فإنهم ينبغي أن يعرِفوا الداء فيُشخصوا الدواء . فقد يقتضي المقامُ الكلامَ على العقيدة ، قد يقتضي الكلامَ عن الزهد والورع والعبادة ، قد يقتضي المقامُ الكلامَ على الْخُلُق ، قد يقتضي المقامُ الكلامَ عن مكافحة المعاصي والمنكرات بالطرق الشرعية المعروفة .

فالإسلام دين واحد ومنهج واحد لا يُجزَّأ : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٢] .

الأساس التاسع : الْبَدْءُ بالأَوْلَوِيَّاتِ ، مع مراعاة الأساس الثامن وهو أخذ الإسلام كله . فإنه لابد لنا أن نَبْدَأ بما بدأ الله به وهو الدعوة إلى توحيد الله الخالص ، وتحقيقِ التوحيد مما شابَهُ من شَوائبِ الشرك والبدع والمعاصي . لأنَّ التوحيد قد أصابه خَلَلٌ في العالم الإسلامي : مِنْ تأويلٍ في أسماء الله وصفاته وإنكارٍ لها وجحد لها ، ومِنْ تَصَوُّفٍ بَغِيضٍ وقُبوريةٍ وتَعَلُّقٍ بالقبور وعبادةِ مَنْ دونَ الله ، ومِنْ إلْحادٍ وتَنكُّرٍ لأوامرِ الله ، ومن ماديةٍ مُفْرِطة تُبْعِدُ المسلمَ عن ربه وتجعلُه يَعبُد المادة ، ونحو ذلك .

وهذا لا يمكن علاجه إلا بالبدء بما بدأ الله به ، فإنَّ كلَّ خَلَل في هذه الأمور راجعٌ إلى الخلل في التوحيد وفي العبودية لله وفي التدين الصحيح والعقيدة الصحيحة . فلو صَحَّ التوحيد لَصَحَّت هذه الأمور كلها ، وبِقَدْر ما ينقص من التوحيد بقدر ما يَضِلُّ الناس عن منهج الحق . لذلك فإنه لابد من البدء بالتوحيد .

رسول الله – عليه الصلاة والسلام – مكَث ثلاثَ عشرةَ سنةً يدعو إلى توحيد الله الخالص ونبذِ الشرك والتعلق بغير الله – سبحانه وتعالى – .

ولا نلتفِتُ إلى الناعقين القائلين بأنَّ الدعوة إلى توحيد الله – عز وجل – تُفرق الأمة ! ، دَعُونا نشتغلُ بما هو أَهَمُّ ! وماذا يكون أَهَمّ من توحيدِ الله وتحقيق العُبُوديةِ له في ذاته وفي أسمائه وصفاته ، وفي عُبُوديته وأُلُوهيته ، وفي ربوبيته وفي قدره وشرعه ؟ نُلاحظ أن كثيرا من الناس يَتَبَرَّمون من الكلام على هذه المسألة ويقول أنَّ الكلامَ على العقيدة يُمكِن أن يُتَعَلَّم في عَشْرِ دقائق .

نَعَمْ ؛ أنا أُسَلِّمُ لصاحب هذه المقالة لو كُنَّا في عصر الصحابة الذين إذا سمعوا « قال الله ، وقال رسوله » لا يَسَعُهُم إلا الامتثال ، وأما بَعْدَ أن ظهر الانحراف عن هذا المنهج ، وافترى الناس في توحيد الله ، وحرَّفوا

في أسمائه وصفاته ، وحرَّفوا في أُلوهيته وفي عبوديته ، وانحرفوا في ربوبيته وبدَّلوا دينَهم في كثير من الأحوال ؛ فإنه لابُدَّ من الاهتمام بهذا الأمر ، والاجتهادِ في دحض كل شبهة تَعْتَرِضُ له ، لا سيما من طُلاب العلم الّذين لابد أن يَتَصَدَّوا لِدحض الشبهات وإزالةِ كلّ ما عَلِقَ بتوحيد الله - تبارك وتعالى - من خَلَل .

فَتَوْحِيدُ الله - عزّ وجلّ - هو الرُّكن الرَّكِين الذي اتَّفقت عليه دعوة الرُّسل مِن لَدُن نُوحٍ - عليه السلام - إلى خاتَمِهم وأفضلِهم نبيِّنا محمدٍ رسول الله . كلٌّ منهم يقول لقومه : ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾

[الأعراف: ٥٩] .

وقال - تعالى - : ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] ، ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣] ، فلا بُد من العناية بهذا الأمر أَيَّما عناية .

لَمَّا بعث رسولُ الله - عليه الصلاة والسلام - مُعاذًا إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قَوْمًا من أهل الكتاب ؛ فَلْيَكُن أَوَّلَ مَا تَدْعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله ، فإنْ هُمْ أطاعوك لِذلك ، فَأَخْبِرْهم أنَّ الله افترض عليهم

خَمْسَ صلواتٍ في كل يوم وليلة ، فإِنْ هُـمْ أَجَابوك لِـذلك ، فأخبرهم أن الله افترض عليهم صدَقةً تُؤخذُ من أغنيـائهم وتُـرَدُّ على فقرائهم ... »[13] .

فلا بُدَّ من البَدْءِ بما بدأَ الله به ، ولابد من التأسيس على هذا الركنِ الركين والحصنِ العظيم ، ألا وهو تحقيقُ توحيد الله وتخليصُه من شوائب الشرك والبدع التي علِقتْ به .

الأساس العاشِرُ : اِبْتِغَاءُ وَجْهِ الله فِيهَا نَقُولُ وَفِيهَا نَعْمَلُ ، وهذا مِنْ أعظم الأُسُس وهو جزءٌ وأساسٌ من أُسُس توحيد الله – سبحانه وتعالى – ، فهو أَسَاسُ نَجَاحِ المسيرة على هذا المنهج ، ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [القصص: ٧٧] ، ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢]–٣ .

فَالإخلاص وصِدْق النية مع الاقتداءِ والمتابعةِ هُمَا شرطَا قَبُولِ أيِّ عملٍ نَتَقَرَّبُ به إلى الله – سبحانه وتعالى – .

ولذلك يقول النبي ﷺ : « إِنَّمَا الأعمالُ بالنِّياتِ وإنما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »[14] ، فقد صَدَّر كثيرٌ من أهل العلم – لاسيما علم الحديث – كُتُبَهُم

---

[13] رواه البخاري ومسلم .

[14] رواه البخاري .

بهذا الحديث العظيم الذي هو أَحَدُ الأحاديث الأربعةِ التي ذَكَرَ أهلُ العلم أنَّ عليها مدارَ الإسلام كلِّه وهي :

- حديثُ « إنما الأعمال بالنيات » .

- وحديثُ « الدِّينُ النصيحةُ ، الدِّينُ النصيحةُ ، الدِّينُ النصيحةُ . قُلْنَا : لِمَنْ يا رسول الله ؟ قال : لله ولكتابهِ ولِرسوله ولأئمة المسلمين وعامَّتِهِم »[15] .

- وحديث « إنَّ الحلالَ بَيِّنٌ وإنَّ الحرامَ بَيِّنٌ ، وبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبَهَات ... »[16] .

- وحديث « مَنْ أَحْدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ »[17] .

فإنَّ هذه الأحاديثَ هي جِمَاعُ الأمر كلِّه .

فلابُد من الإخلاص في القول والعمل حتى يَتِمَّ تصحيحُ المسيرة على هذا المنهج .

ومن الأُسُس أيضا الحادِيَ عَشَرَ : **الْحِرْصُ عَلَى هِدَايَةِ النَّاسِ ومَحَبَّةِ الْخَيْرِ لَهُمْ** ، انطلاقًا من الأُخُوّة الإيمانية ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] ،

[15] رواه مسلم .

[16] رواه البخاري ومسلم .

[17] رواه البخاري ومسلم .

وانطلاقا مِنْ أنْ يُحِبَّ المرءُ لأخيه المسلم ما يُحِبُّهُ لِنَفسه . ولذلك لا يجوز أن يكون هَمُّ الشخصِ هُو التَّشَفِّي من الناس . ولْيُطَهِّرْ قَلْبَه من الغِلِّ والحِقْد ، ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [الحشر: ١٠] .

الأساس الثاني عشر : إِنَّ الْحَقَّ وَاحِدٌ لا يَتَعَدَّدُ ولا نَقول في المسائل التي يُختلَفُ عليها إنَّ الكُلَّ مُصيبٌ ؛ فالمصيبُ واحدٌ ، حتى في المسائل الفرعية التي هي مسائلُ اجتهاديةٌ ويُثاب من أخطا فيها من المجتهِدين ؛ الحقُّ فيها واحد يُصيبُه مَنْ يصيبه ويُخطِئه من يُخطئه . ناهيك عن المسائل العَقَدِية أو المنهجية ، فإن الحقَّ فيها لا يَتَعَدَّدُ أيضًا بَلِ الحق واحدٌ .

والحقُّ ضالَّة المؤمن أين وَجَدَه اتبعه وهذا يتطلبُ منه إن يتجرد من التعصب ، سواء التعصبُ للأشخاص ، أو التعصب للعِرْق أو القومِ أو القَوْمية ، أو التعصبُ الطائفي الصُّوفي حتى التعصّب الفقهي المذهبي ؛ فالحقُّ واحد لا يتعدد .

الأساس الثالث عَشَرَ : أَنَّ الْحَقَّ لا يُعْرَفُ بالرِّجَالِ وَلَكِنَّ الرِّجَالَ هُمُ الَّذِينَ يُعْرَفُونَ بالْحَقِّ . وقد ابتُلِينا بالغُلُوِّ والمبالغة في تقديس

الأشخاص ، وإنْ كان كثيرٌ من هؤلاء الذين يُقَدَّسُونَ لا يستحقون عُشْرَ مِعْشَارِ ذلك التقديس .

وتقديسُ الأشخاص أَمْرٌ معروف عند المُبتدِعة ، لأن العلم عندهم لا يعرفونه بأخذه من مَظَانِّه ومن أهله ، وإنما العلمُ عندهم ما يقوله زعماؤُهم وحتى وإنْ خالَفَ الحق . ولِذا تجده يأخذُ قولَ زيدٍ وعَمْرٍو مُسَلَّمًا ولو خالَفَ هَدْيَ الكتاب والسنة صراحةً .

يجب أن نعظم العلماء ، وأنْ نوقرَهم ، وأن نعطيَهم حقوقهم ، وأن نعرِفَ لهم فضلهم ، وأن ندعوَ لهم ، وأن نترحم عليهم ، وأن نجتهدَ في التلقي عنهم - كما بَيَّنَّا - . ولكنْ لا نغلو في أحد ، لأننا ابتُلِينا منذ انحراف الناس عن منهج الحق في القرون الأولى ، عندما ظهرت الفرق والجماعات المتعددة ، منذ أن تَأَلَّب الخوارج على عثمانَ - رضي الله عنه - وإلى يومِنا هذا ؛ ابتُلينا بأقوام في كل عصر وفي كل مِصْرٍ ، لا يَعْدُو الدِّينُ عندهم تقديسَ الأشخاص. فالقول عندهم ما يقوله زعماؤهم ولو كان مُخالِفا لِلدِّين جُمْلَةً وَتَفْصِيلاً.

ولذلك نَجدُ الكثيرَ منهم لو بَيَّنْتَ له خَطَأَ مؤلِّفٍ في كتابٍ وَزَلَّتَهُ - التي ربما كانت بدعةً منكرةً أو إلحادًا ، وربما كانت طريقا إلى الكفر - لو

بَيَّنْتَ له هذا الخطأَ تقومُ قِيَامته ، لكن لو قلتَ الصحابيُّ فلان أخطأ ، والعالِمِ الفلاني من علماء الأمة أخطأ في هذه المسألة والصواب كذا ، تَجِدُه ؛ بل لو نِيلَ من الصحابة ، أَوْ لَوْ غَمَزَ زعيمُه الذي يتعصب له صحابيًّا من صحابة رسول الله ﷺ فإنَّه لا يحرك ساكنا ، بل الأمر عنده هَيِّن ، إنما لو قلتَ: الكاتبُ الفلاني أخطا في كتابه كذا ؛ فقد تَقُومُ عليك القيامة ! وتجدهم يرمونك عن قوس واحدة !

حتى لو قلتَ إن هذا الفُلاني يقول عن الصحابي فُلانٍ كَذَا ..

فلانٌ يقول عن عثمانَ كذا ..

فلانٌ يقول عن معاويةَ – رضي الله عنه – كذا ..

فُلانٌ يقول عن عُمَرَ بْنِ الخطاب كَذَا ..

فُلانٌ يقول عن الصحابي الفُلاني كذا وكذا ...

أنت عندما تَذْكُرُ هذا القول معترضًا ، تصبحُ أنت مَحَلَّ الاعتراض ، وتصبح مَحَلَّ النَّقْد . ورُبّما أُوذيت من أجل هذا الأمر .

فالحقُّ قاعدةُ السلف : « **أَنَّ الحق لا يُعْرَفُ بالرِّجَالِ وَإِنّما الرجالُ هم الذين يُعرَفون بالحق** » بمعنى أن نبتعد عن الغلو في الأشخاص . لأن

الغلوَّ هو أَوَّلُ مَعَاوِلِ هَدْمِ الدِّين ، منذُ قوم نوح إلى يومنا هذا . فالغلوُّ في غايةٍ مِنَ الْخُطُورَة .

الأمْرُ الذي ربما نختم به - وكما قلت إن هذه الأُسُسَ أَمْثِلَةٌ وليست كلَّ الأُسُسِ - : **التَّجَرُّدُ مِنَ الهَوَى في الْحُكْمِ عَلَى الأَشْخَاصِ** . لأن الهوى خطير جدًّا ، وقد ذَمَّه الله - تبارك وتعالى - وأَخبر عن الكفار أنهم يَتَّبِعُون أهواءَهم قال - تعالى - : ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣] ، وقال - تعالى - : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦] ،

وقال - تعالى - : ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية: ٢٣] . والآيات كثيرة ...

وأخبر النبي ﷺ عن أهل البدَع أنهم ليس لهم إلا ما أُشْرِبُوا مِنْ أَهْوَائهم ، وأنهم تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه . والكَلَبُ داءٌ يُصيب الكِلاب والسِّباع ؛ فإذا عَضَّت الإنسانَ صار مِثْلَهَا ومات بذلك الداء .

الهوى خطيرٌ ، الهوى يعني اتِّبَاعَ شهوات النفس ، هـذا في غايـةٍ مـن الخطـورة ،لأن صـاحِبَه إذا جَـرَتْ تِلْـكَ الأهـواءُ في عُرُوقـهِ فإنـه نَـدَرَ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْه .

وفي الختام فإنَّ طريقَ تطبيقِ هذا المنهج يتمثل في اتِّبَاعِ هذه الأسس وغيرِها مِنْ قواعـد السلف ، ويتطلب مـن المسلم الجدَّ والاجتهادَ فيما يُقَرِّبُه إلى الله – سبحانه وتعالى – بِفِعْلِ أوامره واجتناب نواهيه ، حتى يكون وَلِيًّا لله – سبحانه وتعالى – .

وقد وصف الله – تبارك وتعالى – أولياءَهُ بأنهم لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. قال تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٢ – ٦٤] .

فأولياءُ الله هُمُ الَّذين يَمْتَثِلُونَ أَوَامِرَ الله ويجتنبون مَحَارِمَ الله – سبحانه وتعالى – ، يقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه – جَلَّ وَعَلا – مُبَيِّنًا صِفةَ أولئك الذين هم أولياءُ الله ، ومتى يكونون أولياءَ لله بفِعْلِ الأوامر – وعلى رأسها الفرائض والنوافل – :

قال – عليه الصلاة والسلام – : قال الله – تعالى – : « وما تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أَحَبَّ إليَّ مما افترضتُه عليه ، ولا يزالُ عبدي يتقرب إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّه ، فإذا أحبَبْتُهُ كُنْتُ سمعَهُ الَّذي يسمَعُ به ، وَبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بهَا وَلَئِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ وَلإِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ »[18] .

وَيَقُول – عليه الصلاة والسلام – : « إنَّ الله فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوها ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعْتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا ... »[19] .

هذه بعضُ من الأسس التي يجب السَّيْرُ عليها لِتطبيق منهج السلف ؛ الذي هو أَسْلَمُ وَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ .

أَيَّتُهَا الأخت المؤمنة ..

أُوصيكِ ونفسي بتقوى الله – عز وجل – في السِّرِّ والعَلَن ، والجِدِّ والاجتهادِ فيما يُقربك إلى الله – تبارك وتعالى – ، وأداءِ حقوق الله وحقوق عباده ، وامتثالِ أمْرِه واجتناب نَهْيِهِ ، والاعتزازِ بدِينكِ ، وَعَدَمَ

---

18 رواه البخاري .

19 قال الألباني في تحقيق شرح الطحاوية : « حسن لغيره » .

الجَرَيَانِ خَلْفَ المظاهر البرّاقة والأخطار التي يدعوك إليها دُعاة السُّفور ودعاة الانحلال ودعاة التبرج ودعاة التَّنكُّرِ لِلدِّين .

فأنتِ - أيتها الأخت المؤمنة - إذا أَخْلَصْتِ عملَكِ لله - سبحانه وتعالى - ، وَأَدَّيْتِ حقوقَ الله - تعالى - وحقوقَ زَوجِكِ ؛ فإنكِ تُصبحِينَ لَبنَةً صالحةً في هذا المجتمع ، يُؤتيكِ الله - تبارك وتعالى - مِنَ الأجر مالا يُحصيه إلا هو .

فَاتَّقِ الله يا أَمَةَ الله ، وَاتَّقِ اللهَ في بيتِكِ ، واتَّقِ الله في زوجِكِ ، واتق الله في أولادك ، واتق الله في مجتمعك ، واتق الله في مدرستك ، واتق الله في كل مكان تحِلِّين فيه .

واحذري الفتن ؛ فإنَّ النبي ﷺ أَخْبَرَ على أن أعظمَ الفتنةِ هي فتنةُ المال وفِتنةُ النساء .

فاتَّقُوا الله - عِبادَ الله - ، ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

وَعَلَينا أن نُعنَى بهذه الأُسُس العظمية حتى نلقى الله - تبارك وتعالى - عَلَى ذلك المنهج القويم .

أَسْأَلُ الله الكريمَ ربَّ العَرْشِ العظيم ، أن يُثَبِّتَنَا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يَرزقَنَا السَّيْر على صِراطِهِ

المستقيم صراط ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

أقول قولي هذا ، وأَستغفِرُ الله العَلِيَّ العَظِيمَ الجْلِيلَ لي ولكم ؛ فَاسْتَغْفِرُوه إِنَّهُ هو الغفور الرحيم .